قصة قصيرة

مذكرات جندي في ليلة واحدة

زهير الحلاف

الساعة السادسة مساء :

حركة لا تنقطع .. أشكال آدمية غريبة لا تتوقف عن الضجيج .. لغط .. عجلات القطار تحكّ الارض بقسوة وعنف .. لغات عديدة لم أفهم منها شيئا ..

كانت الرحلة طويلة طويلة .. أحسّ بالتعب .. اتخيل انني صرخت كثيرا عندما أركبوني القطار .. لم أطلب منهم ذلك .. ولكنهم فرروا من دون أن يسألني أحد منهم عن رايي .. رموني هنا على احدى الارائك .. لم اكن اكثر من كيس أراد صاحبه أن يتخلص منه ..

العرق كان يتصبب من جبهتي .. أسلحتي كانت بعيده عني .. صرخت ، ضحكت ، اكلت .. ولكنني لم اعِ شيئا .. دوار شديد هو الشيء الوحيد الذي اتذكر الآن . اضاعت الرحلة ملامحي ، واجتثت لساني .. وسلبت كل ما أملك من أسلحة .

احسّ انني وحيد .. بل لا احس حتى بالوحدة في هذا القطار الواسع الرهيب .. ضحك لي بعضهم ، وضحك مني آخرون . وثمة من لم يلتفت اليّ ، بل لم يخسر من أجلي بسمة واحدة .

الساعة السابعة :

ما زالت الملامح غامضة من حولي .. الصدمة يبدو انها كانت شديدة .. بكائي لم يعد يفلح في اثارة الشفقة لدى الآخرين.. ضجيج القطار ، ولغط الناس ، والحركة المستمرة لم تعد تلفت انتباهي.. بدات يداي تتحركان.. نظرت الى اصابعي فاحسست بحركتها للمرة الاولى .. ابتسمت لاول مرة من قلبي لانني بدات ادرك انني موجود .. أفرحني هذا الاكتشاف ، ولكنني عجزت عن التعبير عن فرحتي .. اقترب مني رجل لا أتذكر شكله : ابيض ، اسمر ، طويل ، قصير .. ولكنني ابتسمت له عندما ابتسم لي .. نظرت الى القطار الذي يجرجر عجلاته فهززت راسي .. ولكنني لم احاول أن أسأل عن وجهة الطريق ..

الساعة الثامنة :

لا أتذكر شيئا .. حاولت أن استرجع ما حدث في هذه الساعة ، ولكن الذاكرة ابتلعت كل ما أعرفه عنها.. أذكر انني كنت ـ وقتها ـ لا أميز الزمن .. ولا ادرك ان ثمة ساعة معلقة على الجدار .. تتحرك عقاربها برتابة واستمرار ... ولكن ما نفع معرفتي هذه ؟ أسأل نفسي الآن لو كنت اعرف ماذا كنت سأفعل ؟ بعض أصحابي يتاسفون لتلك الساعة .. ولكنني لا اريد أن تتكرر من جديد .. كانت مملة وتافهة .. انظر الآن اليها بغباء

وبلادة .. فهي ليست بالنسبة الي أكثر من أي قطعة من أثاث هذا القطار ..

الساعة التاسعة :

بدأت افيق من غيبوبتي شيئا فشيئا .. ولكن الملامح لا تزال مهوشة ، والملامح لم تتضح جيدا .. كنت أرى الاشياء من حولي مكعبة ومربعة ومستطيلة ودائرية ... لم أكن أميز هذه الاشياء ... وانما كانت تبدو مختلطة حينا ، منفصلة حينا .. بيضاء حينا ورمادية حينا آخر ..

بدأت انظر حولي لاميز الاشياء المختلطة هذه .. رأيت عيونا كثيرة حولي ، لا تلتفت الي ولا الى غيري .. بل كلها كانت تسعى في ممرات طويلة تبدو لا نهاية لها .. تسعى باستمرار ، تتوقف لحظة لتدور حول نفسها ، ولكنها سرعان ما تعود الى سيرها من جديد ..

صوت القطار لا يتوقف هديره .. والاقدام تتشبث بعناد رغم كل المنعطفات .. أتذكر جيدا انني بدأت أتعود النظرة العنيدة ، عندما مددت يدي لأتلمس المقعد الخشبي ، فوجدته باردا وقاسيا ..

أحسست بشيء من الجوع ، صبرت ، وعندما بدأ يعوي شيء في داخلي ، بكيت ، كنت أبكي وأنا أبحث حولي عمن سينجدني .. ولكن أحدا لم يلتفت الي .. عجبت فقررت أن أرفع صوتي أكثر ، بكيت بمرارة .. ملأت القطار بكاء .. كان الجميع ينظرون الي ببلاهة .. يبتسمون بغباء ـ أو هكذا خيل الي على الاقل ـ لم أفهم ما حدث أول الامر .. ولكنني فهمت بعد ذلك انهم أطعموني عندما كنت ممددا على الكرسي .. كنت ـ في نظرهم ـ متعبا وضعيفا وأعزل .. لم يكونوا يطعمونني حبا بل رثاء ..

ما زالت الاقدام تسير في طريقها بتؤدة ونظام .. الاظافر طويلة ، والطرق وعرة ، والقطار لا يتوقف لحظة واحدة .. كانت نهاية الطريق تبدو لي غامضة ، ولكنها غير مهمة .. كنت افكر أحيانا أن : « لا نهاية لها » ..

الساعة العاشرة :

أفقت من الغيبوبة .. أحسست بصحو غريب يغزو رأسي .. سلاحي كان الى جانبي .. تحسسته جيدا .. أصوات غريبة كنت أسمعها .. لم أميزها جيدا ، كانت تعالب حينا .. وذئابا حينا .. اقتربت من عينين الى جانبي .. تأملتهما .. كان يسكن فيهما رهبة .. نظرت الى آخرين فوجدت هما وأسى .. ثمة عيون كثيرة ولكن واحدة منها لم تبادلني بسمة حقيقية ..

وقفت على قدمي .. بدت الطريق شبه معبدة .. نظرت الى عيني فوجدتهما حافيتين .. انتعلت .. رحت أتدرب .. غرست في صدري وعيني أكياسا من الجد ورحت أذرع الطريق .. كنت وحدي أبذل كل هذا الجهد ، ماسحا عرقي ، فتعثرت أول الامر .. هيأت أسلحتي .. رحت أسير دائرا ، مستقيما ، صاعدا ، هابطا ، لم أتوقف لحظة واحدة .. كنت في شغل عن هدير القطار .. ولكنني كنت أسمع هديره في لحظات توقفي .. أرجع الى الخلف بذاكرتي ، أبحث عن الحصيلة فأحس بالغثيان .. أنظر الى الجدران فأرى انها من الصفيح السميك .. كل شيء محكم .. والطريق طويلة .. والمعركة تحتاج الى سلاح محنك .. والى فارس لا تفل قوته ..

الساعة الحادية عشرة :

أنظر الى الخلف .. أحس انني قطعت جزءا لا بأس به من الطريق .. أنظر الى الامام فأحس باللانهاية المفجعة .. صخب القطار يشتد ويشتد .. عبوس العيون من حولي تثير الاشمئزاز والضحك .. بل البكاء .. الرياح تدخل من نوافذ لا تبين .. الاقدام تتوقف عن المسير .. الاجساد تتحرك بطريقة لولبية .. أقاوم .. أحاول أن أحافظ على توازني .. كل شيء كان يسير الى الامام وباستمرار .. بدت الطريق أكثر وعورة .. قطع من الصوان تسد منافذ الطريق أحيانا ، أحاول أن اقفز عليها ، فأفلح حينا ، وأتعثر حينا .. أمواج من المياه تغرق مواطىء القدمين .. ولكنني لا أقع دائما .. واذا وقعت أتشبث بالجدران الحديدية الملساء ..

ما زال الشعور بالغثيان هو احساسي الوحيد ، أسير في الدرب ، أضع كل أسلحتي فوق ظهري .. بدأت أبحث عن النهاية .. من دون أن أصل الى شيء ، أقطف ورودا جبلية ، أجمعها باقات ، أرتبها ، ثم أزين بها صدري ورأسي كما يفعل الآخرون .. من دون أن أحس انني فعلت شيئا .. ومع هذا كله كثيرا ما تأتي الريح المجنونة لترمي هذه الورود .. لتنثرها هنا وهناك .. فأغرق في ضحك ممزوج بالبكاء .. ولكنني لا أتوقف بل أستمر في سيري وفي جمع باقات الزهور ...

الساعة الثانية عشرة :

أحس انني قطعت جزءا كبيرا من الطريق ، احساسي به بدأ يتعمق .. كل شيء كان يختلف في شعورا بالمرارة والتفاهة والارهاق .. ولكن ما ذنبي انا ؟ والقطار ما زال يسير .. ويسير ،

وهران